مملكة الخيال

مني ان تكن حقاً تكن أحسن التي والا فقد عشنا بها زمناً رغدا

أهنيهةً قطع الضحى ام جيلا يوم العفاة لقد خلقت طويلا
ما ضرّ فجرك لو تلألأ وانياً فلعلها تغفي العيون قليلا
عاجلت أحلام الدجى فطويتها والروح ترشف جامها المعسولا
ما كان اهناها . يلوّن سحرُها صورَ المنى ورقها تدليلا
ويثير فيهن الحياة شهية والحب أرعن والشباب منيلا
راض الشقاء الشامسات على الهوى فضحكن بهمس الحوار عليلا
وحنا على بؤس العفاة فما رأوا من عثرة الا رأوه مقيلا
خلع النضارة والشباب عليهم والحب والمُتع العذاب الاولى
نِعمٌ واذ كانت تحول مع الضحى ايُّ المباهج لم تكن لتحولا

* * *

كفروا بقدرته . واومن أنها تحوي الوجود وعلك التحويلا
تحنو على القلب الجريح فينثني ريان من رحماتها مظلولا
وترف إن حي الهجير غمامةً وندى وظلاً في الهجير ظليلا
وتحوّل البيد الظماء خمائلاً سكرى وريعاً ضاحكاً مأهولا
فكأنها — فيما تزخرف من منىً — آس تحاول كفّه التحميلا

* * *

ان الذي خلق « الحقيقة » علقماً خلق « المنى » للواردين شمولا
تتصارعان — ولا ترى إحداهما ظفراً — لتبسط حكمها وتطولا
تدعو (المنى) ذمرَ القلوب (واختُها) تدعو بصائر في الوغى وعقولا
والكون بين الضرتين مقسّم فاشهد قبيلاً يستبيح قبيلا
واعذر على البغي القلوب فطالما قيدت وذلّل صعبها تذليلا
اما الدجى — والفجر من اعدائه — فلقد بصرت به بحر جديلا

* * *

قل للحقيقة : ان قسوت فربما فكّ الزمانُ أسيرك المكبولا
ان تملكي الدنيا وسر كنوزها لم تملكي الاحلام والتأميلا

افق المنى احنى وأرحب عالماً وأحنّ افياء وأزين سولا
صوني الكنوز عن العفاة فلا ترى عين إلى تلك الكنوز سبيلا
وتخيرها للقويّ سلافة وغنى وطرفاً ناعماً مكحولا
واذا شكا العاني فسوطك واسمي نغم الالوهة زفرة وعويلا
وتنكري للنائمين على الطوى الله قد خلق « المنى » لتديلا
ماكان جودك للسعادة شاملاً صدقاً ويخلك بالشقاء كفيلا

* * *

هذي الحياة عنت لبأسك رهبةً فتسمعي لجباً بها وصهيلا
وزماجراً قامت على غمّاتها من حكمك العاتي القوي دليلا
ملكت يداك هواءها وبحارها والكون اجمع عرضه والطولا
العلم يحكم وحده متصفحاً لا قلب في سلطانها وميولا
والعلم ان ملك القلوب فسمّهِ وحشيةً وادع الحضارة غيلا
والعلم ان ملك القلوب فسمها حجراً نموه بعبئهِ محمولا
لا نبض ما خفقت بهِ لكنهُ صوت الحديد غداً يصلُّ صليلا
اما الاكف فخيرها ذو جنة حطم الرباب وعالج الازميلا
العلم سخرها وحسب العلم ان تزن الامور جميعها وتكيلا
عفى على حرم الخيال وقدسه او ما ترى حرم الخيال أزيلا
ولقد وقفت بهِ أناشد غانياً قفل الخليط وما اطاق قفولا
وبكيت ـ أجزيه ـ ورُبَّ مدامع خنقنَ حكرباً او شفينَ غليلا

* * *

عهدي بهِ والشعر في ادواحه يغشى القلوب اغانياً وهديلا
خضل المروج ترف انداء المنى فيه السرائر بكرةً واصيلا
وجلا لك الدنيا — على ما تشتهي منها — يملّقُ جسّك المختولا
وأعاد مطويُّ العصور — وآدماً يحنو بأدمعهِ على هابيلا
مُنح الخلود ولا مبول ولا هوًى فأبى وآثر غربةً ورحيلا
فزل يجاور من احبَّ وسرّه ان فارق التكبير والتهليلا
تتغير الالوان . تفسر نفسه بالحسن . لا نزراً ولا مملولا

وتبدّل الالوان . نعمة خالد لم يلو في فردوسه التبديلا

* * *

وترى بأفياء الخمائل عزة تجني لتحتضن النهود جميلا
فالعم برؤية عاشقين تلاقيا سحراً وقد هوت النجوم افولا
واحذر جميلاً حين جنّ جنونه فسطا .... ولا غزلاً ولا تأهيلا
تشوان يجذبها إليه — ولا يرى إلّا — ويلهب عربها تقبيلا
يترشف الثغر الشهيّ سلافةً ويرفه كالاقحوان بليلا

* * *

ودعى وردنّ على الغدير وما انتقت حصاءهن الشاعر الضلّيلا[1]
حتى اذا أخفى البرود وسلها أمراً رأته من الحياء جليلا
عطفت تناشده العفاف وأتلعت جيداً — كلا لاه الصباح — اسيلا
فأبى وتسرع نحوه عريانة خجلى — لقد حبّ الجمال خجولا

* * *

وتطالع المجنون في اسماله شلواً بأنياب السقام أكيلا
خذلته نعماء العيون وسحرت العبقرية ذلك المخذولا
فهوى صريعاً : بالرمال مكفناً بمدامع الصبح البليل غسيلا

* * *

وفتى قريش[2] وهو يقتل طرفه ليرى الثريا والهاً مخبولا
عبثت لتشهد منه أية لوعة تجزى وايّ هوى ملحّ تولى

* * *

وسكينة[3] والشعر في ابوابها والحسن يبعث شجوه فيقولا
تشوى الدلال. تعبّ من خمر الهوى سكراً ويمنعها الحياء قيلا

---

(١) امرؤ القيس بن حجر ويشير الشاعر هنا الى حكايته مع ابنة عمه — وكانت هوى له — حين أخفى بردها وبرود رفيقات لها — وكن يسبحن في غدير — فلما انتهين من الماء لهواً وابترادا . أبى عليهن البرود . الا ان يأخذها منه واحدة فواحدة عارية . وقد نزلن عند هواه الا ابنة عمه فقد تعللت وسوفت . ثم رضيت واذعنت

(٢) جاء في الاغاني ان عمر بن ابي ربيعة كان مغرماً بالثريا وكانت غرضة ذلك جمالا وتماماً وكانت تصيف بالطائف وكان عمر يغدو عليها كل غداة اذا كانت بالطائف فيسئل الركبان من الطائف عن الاخبار قبلهم . فلقي يوماً بعضهم فسأله عن اخبارهم فقال ما استطرفنا خبراً الا اني سمعت عند رحيلنا صوتاً وصياحاً عالياً على امرأة من قريش اسمها اسم نجم في السماء فقال عمر الثريا ذل نعم فوجه لربه الطائف يركضه ملؤ فروجه وسلك طريق كدا وهي اخشن الطرق واقربها حتى انتهى الى الثريا وقد توفيت وهي تشوف له وتشرف لوجدها سليبة عميمة فاخبرها الخبر فضحكت . وقالت والله أنا أمرتهم لاختبر مالي عندك . والى هذه القصة يشير الشاعر في ابياته هذه (٣) سكينة بنت الحسين وهي من اظرف نساء التاريخ العربي القديم

ملؤ العيون مفاتناً لكنها ملؤ القلوب جلالاً اعزّ أثيلا
وقف العفاف يذود عن ذاك الحمى ـ الا بلى ـ شرس الذياد بخيلا
وتذيع جنتها عبيراً ربما خذ الشفاء القدسيّ من جبريلا

* * *

وأبا نواس في مجالس لهوه قسم اللبيب سكرة وذهولا
حالي الدهاب هنا وعلل ذنبه للاثمين فأحسن التعليلا
حسب الحياة سلافة ومهفهفاً والباقيات من الحياة فضولا
لم يهوَ غير الحسن في خفراته وأحبه عند القيان ذليلا
من كل فاترة فارق جنتها ألفيت عقد نطاقها محلولا

* * *

وترى ابن برد[1] وهو في نزواته كالليث مرهوب السطا معزولا
هتك الفضائح بعد صون وانتضى للماكين بيانه المصقولا
فرموه بالاشراك ثم تصدوا من حاسديه شاهداً مقبولا
حتى اذا عزّ الشهود تحفزوا فرأوا شهوداً في القريض عدولا
زعمته أهواء السياسة كافراً تالله ما بالكفر راح قتيلا

* * *

متجاورين . ترى بكل بليلة عند الغدير خليلةً وخليلا
متنادمين على الخمائل انشدوا غرر النسيب ورتلوا التنزيلا

* * *

سقيا لنعماء الخيال ولا رأت عيناي ربعاً من هواه محيلا
أنت بزينته الحضارة وانتضت شر النقاضي دينها المطولا
شوهاء تحلم بالقبور ولا ترى الا الاسى والثكل والترميلا
ويعيد منطقها انضجيج تناسقاً والحب علماً قد أعدّ فصولا
فاذا اردت الحب . فابغ نعيمه عند الكتاب وحاذر التأويلا
وتعلم الحرقات من صفحاته والدمع كيف تروضه فيسيلا
واحذق معاتبة النجوم ولومها متوجعاً وتعمد التطويلا

(١) بشار بن برد وقد فتك السياسة بلسم الدين

فن الكياسة في كتابك ان ترى بين النجوم على هواك عقولا

***

حرم الخيال فدى رؤاك حضارةً قد مثلتك لتخطفَ التمثيلا
هيهات حسنك من جمال خادع غرَّ العيون وأحكم التمثيلا

***

إني لألمح في الغيوب رسالةً وأرى وراء الغيب منك رسولا
وكتاب حق لا يماري في الهدى ان خالف المعقول والمنقولا
انجيل عيسى في الحنان واذ يكن في غير ذاك — يخالف الانجيلا
وبيان أحمد قوةً وعذوبةً وسهى ورأيا في الحياة جميلا
عفّى على مدنية صخّابة يذر الخلىَّ ضجيجها مشغولا
جبارة لا عطف في أقدارها عجلى وما خلق الزمان عجولا
يمنى تعدُّ لك المتاع واخمها تلد الشقاء وتخلق التنكيلا
تبني وتهدم كالحياة وربما غزلت لتنكث خيطها المغزولا
لا عطف يخفق في الصدور ولا هوى كذبتك عينك بل رأيت طلولا
والعلم . ويل العلم يوم حسابه . ان كان عن نزواتها مسؤولا

***

هذا كتاب الغيب فيه رحمةٌ تسع البرية مترفاً ومعيلا
غسل الوجود من الضغائن والهوى لتحل روح الله فيه حلولا
ودعا « الضمير » عاصباً متألقاً فكأنه من آل اسرائيلا
وتلاقت الانساب . يغمر عطفه منها فروعاً سمحةً وأصولا
ساوت بساطتهُ الشعوب فما ترى فيها عجيناً او تعد أصيلا
وحنت على النفس الاثيم . فأبصرت إثم النفوس على النفوس دخيلا
ولدتهُ أخيلة الشرائع فكرةً فما بأحضان الحضارة غولا
خلقت له الاسماء وهو كنايةٌ وتخيلت ألوانهُ تخييلا
ورمت به الانسان في نعمائهِ فتصيدتهُ مكبلاً مغلولا
لم ترض تعذيب الحياة فسخرت بعد الردى لعقابه « المجهولا »
فكأنما تلك الشرائع تقتضي عند النفوس ضغائناً وذحولا

٢٢ مارس ١٩٣٢ بدوي الجبل